قَدْرَ ما نستطيع نرى.. عودة إلى القضية الأوكرانية

أسفاً اني تأخرت عن الرد، أو عن الشكر، لأخي الأستاذ عبد الله حبة. فتصويباته التأريخية وأدبه الجم في الخطاب تستوجبان شكري ومحبتي التي هي ليست جديدة له.

□ ياسين طه حافظ

الحقيقة إني ما كنت معنياً في التأريخ الأوكراني ولا بملابسات تأسيس الدولة الأوكرانية. الجملة الوحيدة التي وردت عن التأسيس كانت من باب التمهيد ويبدو أنها لم تكن دقيقة علمياً كما أوضحَ في ردّه. نحن عموماً لا يعنينا الماضي قدر ما يعنينا حاضر البلد والإشكال السياسي وعواقبه المؤسفة.

ما اهتممت به هو واقع ممارسة السياسة بعيداً عن النظريات والاخلاقيات الموروثة. فبدا لي، وأظن هذا يبدو لأخي الأستاذ حبة أيضاً، أن السياسة في العمل والتطبيق غيرها في النظرية والفكر السياسي. عموماً، انا لا اختلف معك فيما وراء القضية وتأكيداً لذلك أود هنا أن أنقل فقرات مما ورد في مقالتي "حضور السياسي وغياب العقلي في القضية الأوكرانية" :

١- "... واقع الحال هي منطقة حرجة وصعبة للسلام الروسي وخوف روسيا من التقدم العسكري الغربي واقتراب الناتو من حدودها خوف مشروع ولكن مبالغ فيه. فبين الدول اتفاقات وثمة تفاهمات بين روسيا والغرب (الولايات المتحدة وألمانيا تحديداً). وثمة بنود تفاهم مع الناتو. ثم ليس سهلاً التحرش بدولة نووية عظمى مثل روسيا. مثلما نقر بأن الاتحاد الاوربي سياسي قبل أن يكون مدنياً. هو عسكري أساساً. وأي عذر لا يقف صامداً أمام الواقع السياسي الدولي.."

وكما ترى صديقي، الأستاذ عبد الله حبة، اني غير غافل عما أشرت له و ملاحظاتك موضع التقدير.

وورد في مقالي أيضاً:

٢- "نحن نعلم بحلم العديد من ناس الاتحاد السوفيتي بحياة جديدة مرفّهة كما يسمعون عنها وكما تسوقه الميديا الغربية وكما يقرأون عن حياة "حرة" (أرجو ملاحظة المزدوجين) ضامنة لحرية التعبير والمعتقدات وحرية الاطلاع والسفر ..."

وكما ترى يا صديقي أن الكلام سبقته عبارتا "كما تسوقه الميديا الغربية وكما يقرأون و ..."

٣- وورد في مقالتي أيضا :

" وفي الإعلام والبروبوجندا تغيب كثير من الإيجابيات ..."

٤- ثم ورد في مقالتي :

"جماهير عريضة من الشعب الأوكراني تفتقد فرصة الحصول على الدولار الذي يمكنهم من التمتع بنعمة "الحرية الجديدة". مع ذلك يبقى الاستقلال القومي مصدر سعادة لا نستطيع نكرانها على الشعوب.."

٥- وورد في المقال أيضاً:

"... نحن إذاً بين حق روسيا بحماية نفسها من تقدم الناتو الى حدودها وبين حق اوكرانيا، الدولة المستقلة، في تحقيق تطلعاتها والتقرب من اوربا والاتحاد الاوربي. وهنا حصلت الأزمة بين القوتين العظيمتين الغرب، وراءه امريكا، والشرق المتمثل بروسيا وريثة الاتحاد السوفيتي.."

مما ذكرته من اقتباسات لا يبدو أن اختلافاً مهماً بيننا، اللهم إلا في أسلوب الطرح. فالحقائق السياسية واضحة ولسنا سذجاً فقد طحنتنا السياسة وسحقت وطننا ونعرف جيداً ما وراء الشعارات من نوايا ومشاريع. فلا يأخذنك يا صديقي سوء الظن بي. هي حياديتي التي لا تبدو مريحة أحياناً. علماً أن قناعاتي هي كذلك، والتصويب مرحّب به دائماً ..

لكن الثيمة الأساس في المقال، والتي هي سبب كتابتي له، هي الشعور بالأسف لشعب مسالم وبسيط تقسمه السياسة الى جبهتين متعاديتين، بل متقاتلتين بالأسلحة الثقيلة. كما شعرت بالأسف للوضع العدواني الذي نشأ بين الأوكرانيين والروس وهما شعبان بينهما أزمنة نضال مشترك وأخلاقيات مشتركة وأنظمة كانت واحدة وحياة. وإن العديد من الشيوخ الأوكران يعتزون اليوم، بأوسمتهم العسكرية ولاتزال صور الموتى بالزيّ العسكري معلّقة على الجدران.

أساس اعتراضي لا على دفاع روسيا عن حدودها، ولكن على اسلوب حل المشكلة وكأن لا نظرية ولا خلق اشتراكي ولا عقل إنساني تقدمي.. أسفاً، بوتين ليس لينين السياسي الخارق والإداري الخارق. بوتين حل المشكلة القومية بإشكال قومي! فجعل الشعب الواحد قوميتين متعاديتين ومسلّحتين ومفصولتين وكل تسندها جهة. كم بعيد إذاً أن يتحد هذا الشعب مرةً أخرى؟ هذا هو الفرق بين لينين العظيم وبين لوذعية وفردية السيد بوتين. أسلوبه هنا له صلة بهجومه على الدوما! وهذا طبعاً لا ينفي عنه الحزم السياسي وروح الزعيم القوي، لكني أراه، لحد ما، يفتقد الحكمة.

إنني، وقد زرت دونتسك ثلاث مرات قبل انفصالها، لم أرَ انشقاقات صعبة بين الأوكران والناطقين بالروسية منهم. الشعب يتكلم اللغتين. الانحياز طبيعي لدى القوميين الأوكران لكن لم المس مشكلة. ولم تكن اللغة الروسية وحتى اليوم وقد عدت قبل شهرين، ممنوعة. ثمة مدارس تدرس باللغة الروسية وفي كييف. أما عموم المدارس والدوائر الرسمية، فبالاوكرانية وهذا طبيعي مما يقوم به حكم جاء على أساس قومي. كما أن ولدي حصل على الكانديدات هناك باللغة الروسية وكان هذا خياره بين اللغتين، ولا مشكلة. طبيعي جداً أن نرصد إفرازات لتشدد الغوغاء القومي وفي فورة حماسة التأسيس الجديد. لكن حديثنا عن الرسمي والثقافي.

الخصومات للأسف كانت بسيطة وتحولت الى نزاعات بعد دعوات الانضمام للاتحاد الأوربي. وبالتأكيد وراء النزاعات من يغذيها ويمدّها بالسلاح. ولا أظنك محتاجاً الى حججي، صديقي العزيز والذي احترمه واحترم ترجماته ووثائقه المهمة والمفيدة، فأنت تعلمني السياسة وأنا راضٍ. أنا رجل أدب احزنني الوضع الإنساني هناك بعد انسجام الشعب وبعد حياته الآمنة المستقرة. فتناولت المسألة تناولاً إنسانياً، وإلا فأنا لا أبرئ جهة سياسية من مطامعها. ما أزال، وسأبقى، أشعر بالأسف لضياع تلك التربية الاشتراكية وذلك النضال المشترك للشعبين الروسي والأوكراني، واتمنى للساسة الروس أن يحتفظوا، وهم يواجهون الاشكالات الدولية، بوصايا وأضواء النظرية. وأن يفكروا بأن الشعبين لا يزالان، وبحكم التاريخ المشترك والصعب، أقرب للتعاون والعيش المشترك من العِداء المسلّح والحرب.

وقبل أن انتهي، هذه فقرة أخرى من مقالي سابق الذكر توضّح حقيقة فهمي ومشاعري. قد أكون حالماً لا واقعياً ولكن هو هذا تفكيري. وردٍ في ذلك المقال:

" ... أما كان ممكناً حل هذا التناقض بين التطلع الأوكراني والضرورة الروسية؟ أما كان ممكناً الحفاظ على العلاقات التاريخية والانسانية بين الشعبين الروسي والأوكراني والسلم الاجتماعي داخل أوكرانيا؟ أما كان ممكناً أن تضمن روسيا سلامة حدودها باتفاقية تتعهد فيها الدولة الأوكرانية بعدم السماح باستعمال أراضيها ضد البلاد الروسية والسماح للروس بالدفاع عن بلادهم عبر ممرات عسكرية ضد هجوم قد يقع عليها؟ هل توقف العقل البشري فلا حل إلا احتلال مدن وإقامة تمرد مسلح وحرب انهكت ولا تزال تنهك الشعب الأوكراني بقوميتيه؟"

شخصياً، لا أظن انقسام الشعب وانفصال مدن منه على أساس قومي، نتيجة مريحة أو مرضية لنا ما دمنا كتّاباً إنسانيين نتمنى الخير والاستقرار للشعوب بعيداً عن المخططات والنزوعات واستغلالها من الجانبين. إننا معاً، أنت وأنا، نعلم ما وراء انفراط إرادة الشعب، مثلما نقدر استغلال هذا وإن الشعب الأوكراني أو الوطن الأوكراني هو الذي يدفع الثمن. ألم تتضح النتيجة؟ روسيا استعادت القرم وفصلت دانتسك وما جاورها عن أوكرانيا وسحبتها إليها والغرب حقّق سحب أوكرانيا إليه لتقترب من الناتو والاتحاد الاوربي. كلاً أخذ حصته. يالحقارة السياسة الدولية!.

الفرصة الكردية- العراقية المُضاعة

□ عدنان حسين

حيدر العبادي عند تشكيلها في خريف ٢٠١٤، ثم أعلنت حزمتين لها في صيف ٢٠١٥، من دون نتيجة ذات قيمة على هذا الصعيد. كما أن السيد العبادي ما فتئ يتعهد المرة تلو الأخرى بمكافحة الفساد الإداري والمالي المتفشي في كيان الدولة العراقية كله، من دون تحقيق شيء يتجاوز الكلام المعاد المكرر.

لولا هذان الخطآن اللذان قد يرجعان إلى أن حراك إقليم كردستان لم تقدْه أو تنصرْه حركة سياسية رصينة، لأمكن للحراك الكردي أن يشكّل بداية لمرحلة عراقية جديدة، هي مرحلة اضطراب اجتماعي - سياسي واسع النطاق يُمكنه إرغام الطبقة السياسية المتنفذة في العراق، بما فيها الطبقة الحاكمة في الإقليم، على إعادة النظر في العملية السياسية وتعديل مسارها باتجاه تحقيق بعض الإصلاحات السياسية والإدارية قبيل حلول موعد الانتخابات التشريعية المقرّر إجراؤها في مايو (أيار) من العام المقبل، أو من خلال هذه الانتخابات.

الطبقة السياسية المتنفذة في أربيل والسليمانية، وكذا في بغداد، هي الآن في أضعف حالاتها، ولو مضت الحركة الاحتجاجية الكردستانية في الاتجاه الصحيح، السلمي غير المعوَّل على العوامل الخارجية، لكان لذلك دور في تنشيط الحركة الاحتجاجية العراقية وتجديد دمائها، فالمظاهرات الأسبوعية الجارية في العاصمة بغداد وثماني مدن أخرى في الوسط والجنوب رفعت صوتها عالياً في الأيام الأخيرة، تضامناً مع حراك السليمانية والمدن الكردية الأخرى، لكنّ تعويل هذا الحراك على حكومة بغداد لا يمكنه أن يجد له صدى داخل الحركة الاحتجاجية العراقية التي ترفع المطالب نفسها تقريباً: الإصلاح السياسي والإداري، وإلغاء نظام المحاصصة، وإجراء انتخابات حرّة ونزيهة، والمكافحة الجادّة للفساد الإداري والمالي في عموم العراق.

من الواضح أن حراك الإقليم الأخير لم يكن صناعة كردية مائة في المائة، رغم أن الكثير من الأسباب الدافعة إلى التظاهر وإعلاء صوت الاحتجاج قائمة بالفعل منذ زمن. أطراف فاعلة في الحكومة الاتحادية وقوى سياسية متنفذة ومؤسسات إعلامية حزبية في بغداد لعبت دوراً غير قليل في التحريض وإذكاء نار الاحتجاج، بيد أن هذا لم يكن العامل الحاسم في إثارة الاضطراب الأخير. المشكلة أن الإدارة الحكومية في إقليم كردستان، كما في العراق كله، قد تعرّضت إلى عملية تآكل بنيوية بسبب الفساد الإداري والمالي الناجم عن نظام المحاصصة الذي تقاسمت بموجبه بعض الأحزاب كل مصادر السلطة والنفوذ والمال، فكان أن نمت في وقت قياسي طبقة فاحشة الثراء من بيروقراطيي الحكومة والأحزاب، وهو نمو كان على حساب قوت الناس الذين تُركوا للفقر والبطالة ولانهيار نظام الخدمات العامة.

مع ذلك، فإن الاضطراب الاجتماعي الحاصل في الإقليم الآن، كما في بغداد، هو انعكاس للأزمة البنيوية التي تواجهها العملية السياسية، إنْ في الإقليم أو في العراق... نظام المحاصصة تآكل تماماً وأظهر بشاعته على نحو واضح وفاضح، بيد أن الطبقتين السياسيتين المتنفذتين في بغداد وأربيل والسليمانية ليستا فقط تكابران ولا تريدان الاعتراف بهذا، بل إنهما تعملان على تفادي الانصياع للاستحقاق اللازم، وهو التخلي عن نظام المحاصصة وقطع دابر الفساد تماماً.

حتى لو فشل الحراك الكردي الحالي في تحقيق مطالبه الآن، فإنه كما الحركة الاحتجاجية العراقية العامة يُنذر بانفجارات اجتماعية مزلزلة بعد حين، قد يصعب السيطرة عليها... وهذا ما يتعيّن أن تعيه جيداً أربيل والسليمانية... وبغداد كذلك.

■ عن: "الشرق الأوسط"

حول تجديد آليات فهم النصّ المُقدّس (١-٢)

تتعالى أصوات كثيرة في العالم الإسلامي والعربي بدرجة خاصّة تطالب بالانفتاح على الفكر العالمي، وتدعو الى العمل بمبدأ التثاقف الذي أصبح ضرورة ماسّة، لا يمكن تجاوزها، ذلك لما أفرزه ويفرزه الفكر العالمي من نتاج ضخم على صعيد الإنجاز الفلسفي والأدبي والعلمي، ولأن الوقوف أمام هذا السيل من بداع البشري عملية محكوم عليها بالفشل الذريع بفعل ثورة الاتصالات المذهلة، ولكن الكثير من المفكرين يرون أنّ ذلك ينسجم تمام الانسجام مع أصولنا الثقافية وتجربتنا التأريخية.

□ غالب حسن الشابندر

تجديد آلية التعامل مع منابع حضارتنا وقيمها وأخلاقها ومتبنياتها ليست ضرورية في سياق عملية التثاقف ذاتها، بل هي ضرورية بحد ذاتها، لأن الزمن تغيّر، ولأن الواقع يتعرّض لهزّات ضخمة قد تصيب مجتمعنا بالذهول.

فلم يعد سرّاً ان الاجتماع الاسلامي سبق له وأن خاض هذه التجربة بنجاح مذهل، فقد تلقّى برحابة صدر الإنجاز اليوناني والفارسي والهندي، وعمل على تهذيبه وتطعيمه بالكثير من قيمنا العقدية والتشريعية والأدبية، الأمر الذي أغناه و اغتنى به في الوقت نفسه، ولذا فإن عملية التثاقف هذه ليست غريبة ولا خطرة، بل هي في صالح رؤيتنا الفكرية وإنجازنا الثقافي، سوف يفتح لنا أبواب التأثير في الآخر، سوف يفتح لنا فرصة الحضور العالمي، سوف يضع لنا موطئ قدم على الساحة الثقافية العالمية .لقد كانت الحضارة الاسلامية سبّاقة لترجمة الإنجاز الاغريقي، ولم يجد المفكّرون المسلمون أيّ ضير أو تخوّف في القرنين الثالث والرابع الهجريين من دراسة هذه التجارب، وقد تعدّى تعاملهم معها مرحلة التلقي البريء الى المُحاكمة والنقد، كما هو معلوم، ولذا كان انتقال هذا التراث إلى الغرب عبر إسبانيا من أهم عوامل الانتصار على أنسقة التفكير البسيطة، ومن أهم الأسباب التي كانت وراء النهضة الاوربية الجبّارة.

ولكن في الحقيقة لا يمكن لعمليّة التثاقف أن تؤتي أكلها إذا لم نجدِّد طرائق التعامل مع تراثنا وقيمنا ونصوصنا وخطابنا ، فإنّ الانفتاح على الآخر يحتاج الى تهيئة ذهنية وثقافية قادرة على الهضم والتمثيل والإنتاج، من هنا نقول وبكل صراحة، لا يمكن لعملية التثاقف هذه أن تمارس دورها بإيجابية من حيث علاقتها بنا، إذا تواصلنا معها بآليات تنتمي الى الثقافة الجامدة، الفكر الحرفي، فإن الآخر يمتلك الآن تقنية هائلة من الرؤى والتصوّرات والآليات في إنتاجه الثقافي والفكري، ويخطئ من يتصوّر بأن ظهور المدارس الفكرية المتلاحقة الواحدة بعد الأخرى لهو دليل على قلق الآخر وجدبه الروحي، هذا تفسير في تصوّري هروبي، فإن الوجودية والبنيوية والتفكيكية، واتساع مديات فلسفات ومدارس علمي النفس والاجتماع، واجتراح النظريات المتعدّدة في تفسير النص وما إلى هنالك من اجتراحات على كل صعد النشاط العقلي الإنساني، إنّما هي إبداعات وليست صراعات، هي استجابة للحاجات التي راحت تفرض نفسها بقوة وإلحاح، وذلك نتيجة هذه السرعة الرهيبة التي يخطوها التاريخ، وبالتالي فإن خلود الفكرة وتأبّدها في الذهن والممارسة لا يدل بالضرورة على عمقها وسطوعها، كما يُخيل لكثير من الناس .ثقافة الآخر. وهو بطبيعة الحال الغرب. لا تنطلق من مفاهيم الجوهر والفهم المطلق والاستسلام للظاهر، بل تنطلق من جو متحرك بالافتراض والاحتمال، من جوّ يتطلع لما بعد السطور والأشياء والظواهر، ومن هنا علينا أن نعي هذه الحقيقة ونحن ندعو إلى مبدأ التثاقف، فمن الصعوبة وهذه الحال أن نفتح صفحات فكرنا لمثل هذا الفكر ونحن نمارس عملية الفهم المُطلق، ونتعامل مع الآخر بلغة النفي، ونمارس عملية إنتاج الفكر بآليات تدّعي القدرة على اكتشاف الحقيقة كاملة ..

هذا الطرح قد يستفيد منه بعض الناس بأنه دعوة لاستباحة فكرنا، أي نفي الثوابت، ومسح كل الخطوط الحمراء، وإلغاء كامل للمقدس، وتعرية الذات من ثوب قديم، والاكتفاء بالتحول الى مجرد وعاء فارغ ينتظر الإملاء.

هذه الدعوة قد يفهمها البعض بأنها انقلاب صارخ على الهوية التي تأسست عبر هذه القرون الطويلة، قد يفهمها بأنها عملية تخلٍ كامل عن مسوّغات تسميتنا كمسلمين وعرب وشرقيين، وقد يفهمها البعض بأنها دعوة لتغريب الذات والهوية والوطن والاجتماع، وبالتالي يتجاوزنا التأريخ كأمة ودين وثقافة، نفقد المجتمع والمستقبل .

في الحقيقة إنّ تجديد آلية التعامل مع منابع حضارتنا وقيمها وأخلاقها ومتبنياتها ليست ضرورية في سياق عملية التثاقف ذاتها، بل هي ضرورية بحد ذاتها، لأن الزمن تغيّر، ولأن الواقع يتعرّض لهزّات ضخمة قد تصيب مجتمعنا بالذهول، فيما إذا لم نعمل على مواجهة الصدمة، أو بالاحرى على امتصاص الصدمة، ليس الصدمة النفسية وحدها هنا، بل صدمة الفكر ذاته، صدمة الثقافة ذاتها، ومن هنا ليس ممّا ينافي الفكر ولا الموضوعية، فيما قمنا بتأليف مركب من التسويغ يدعو الى تجديد آليات التعامل مع المادّة الخام لحضارتنا وفكرنا وثقافتنا، فهناك عملية التثاقف وهناك حقيقة الزمن المتغيّر، فكلاهما وبالتفاعل الحي تنتج ضرورة لازمة، مؤداها لا بد من النظر من جديد في آليات العمل التي نجريها على جسد موادنا الحضارية الأساسيّة.

إذا أردنا الانطلاق لتحديد المنابع الأولى لكي نطرح بعض التصوّرات عن آليات مُقترحة لتشريحها وتفكيكها، لابد أن نعرف وعلى مستوى المُعطَى الأولي البديهي، إن النص المقدّس هو المصدر الأم، ولقد كان المفكّر الكبير أمين الخولي، يطلق على القرآن الكريم عنوان (كتاب العربية الأكبر)، وهي تسمية ستراتيجية موفقة في تصوري، لأنها مُشتقّةٌ من طبيعة القرآن وطبيعة الرسالة التي أُنيطت به ، بل وطبيعة التاريخ الذي صنعه ويصنعه، والقرآن بالنسبة لنا كعرب ومسلمين وشرقيين، ليس شريعة المجتمع كما يقول الرئيس القذافي في أحد شعاراته الفكرية، بل هو ثقافة المجتمع، والثقافة أشمل وأوسع وأعمق من التشريع كما هو معروف، وذلك حتى بالنسبة لغير المسلمين، لأن القرآن طبع المجتمع بروحه وأجوائه وتاريخه، وبالتالي، فليس من الخطأ القول بأن القرآن يشكّل ثقافتي وثقافة الآخر من العرب والمسلمين، ولا اعتقد بأن الثقافة تعطي معنىً محدّداً هنا، بقدر ما تعطي مفهوماً عريضاً، يعني طريقة الحياة والتفكير والسلوك بصرف النظر عن التفاصيل، بصرف النظر عن الكثير من الجزئيات، وليس من الأسرار قولنا إن مدارس التحليل النصّي والمعرفي بدأت تفتش عن جذور التفكير للمجتمعات في النصوص الأولى، النصوص المقدّسة، وإلا هل ننكر بأن بعض الاتجاهات في هذا المجال ترى بأن فلسفة المجتمع اللاطبقي من إفرازات المسيحية الطوباوية؟ وهل ننسى بأن اتجاهات أخرى ترى بأن الرأسمالية هي نتاج الفكر البروتستانتي على يد لوثر بعد أن طرح فكرة تقديس المال والعمل، بل هل ننسى بأن ميشيل فوكو يُرجع نظام العيادة الأوربية الى فكرة الاعتراف الكنسي رغم انحساره في الأيام الأخيرة كممارسة طقسيّة كانت شائعة متسلطة؟